

دلالات المكان في المجموعة القصصية "حدث ذات جدار" للدكتورة سناء الشعلان

بقلم: عباس داخل حسن*

"إضاءة على ظلام: الجدار العازل الفاصل هو عبارة عن حاجز طويل بناه الكيان الصهيوني في الضفة الغربية في فلسطين المحتلة قرب الخط الأخضر، لمنع دخول الفلسطينيين سكان الضفة الغربية إلى الكيان الصهيوني أو إلى المستعمرات الصهيونية القريبة من الخط الأخضر، يتشكل هذا الحاجز من سياجات وطرق دوريات، أو من أسوار إسمنتية بدل السياجات في المناطق المأهولة بكثافة مثل منطقة المثلث أو منطقة القدس. بدأ بناء الجدار عام ٢٠٠٢ م في ظل انتفاضة الأقصى، وفي نهاية عام ٢٠٠٦ م بلغ ٤٠٢ كم، ويمر في مسار متعرج يحيط بمعظم أراضي الضفة الغربية، وفي أماكن معينة مثل مدينة قلقيلية، يشكل معازل، أي مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريباً بالجدار من جهاتها جميعها. يطلق عليه اسم جدار الفصل العنصري أو جدار الضم والتوسع العنصري..."^١

أضافت الأدبية سناء الشعلان مجموعة قصصية جديدة الرقم ١٥ ضمن منجزها القصصي متكونة من ثلاثة عشرة قصة قصيرة {المقبرة، حالة أمومة، الصديق السري، شمس ومطر على جدار واحد، من أطفأ الشمعة الأخيرة،

١ الشعلان، د. سناء: حدث ذات جدار مجموعة قصصية، ط١، دار أمواج للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ٢٠١٥.

* أديب ناقد من فنلندا.

٢ المصدر نفسه، ص ١٣

عندما لا يأتي العيد، وادي الصّراخ، الغروب لا يأتي سرّاً، سلالة النور، ما قاله الجدار، البوصلة والأظافر وأقول المطر، خرافية أبو عرب}.

هذه المجموعة الثّانية بعد "تقاسيم الفلسطينيّ" التي خصّصتها الأدبiete سناء الشّعّان بالكامل للقضية الفلسطينيّة وفاءً لجذورها الفلسطينيّة التي لا تفارقها في نشاطاتها الأخرى كلّها، فاضحة أبشع استعمار استيطاني كولونيالي عرفه التاريخ البشريّ، ولازال الصّراع الفلسطينيّ يشدّ ضراوة للخلاص من هذا الاستيطان وهمجيّة الاحتلال وشدّاذ الآفاق المسلّحين بالآلة حرب مدمرة، مدعومين من قوى لها تاريخ بشع في اقتلاع السّكان الأصليين والسيطرة على خيرات ومقدرات تلك البلدان، لكن فشلوا في اقتلاع الفلسطينيّ المؤمن بعدالة قضيته وحقّه الشرعيّ في الوجود والأرض التي ولد عليها، جاءت عناوين قصص تقاسيم الفلسطينيّ أسماء أماكن تواجدته في الشّتات مجبراً عليها بالترحيل والتّهجير، وباتت سجناً وحيز مكاني قيّد حريته وأحلامه وتطلّعاته الإنسانيّة.

إنّ ما يميّز المجموعة الجديدة "حدث ذات جدار" عن "تقاسيم الفلسطينيّ" هو المكان؛ فقصص "تقاسيم الفلسطينيّ" تدور بمكان معادٍ، أي في مكان الشّتات الفلسطينيّ في المنافي والغربة والحنين ومخيمات الضّياع واللجوء القسريّ، "مكان يمثل الخوف والانطواء بل هو مكان الكراهية والصّراع"^٣؛ لأنّه مكان نقيض للمكان الأليف للفلسطينيّ الوطن الطّبيعيّ الذي يتمسك به، ويدافع عنه ضدّ كلّ القوى المعادية؛ لأنّه يمثّل قيمة إنسانيّة وجوديّة، في "حدث ذات جدار" تدور الأحداث في المكان القومي للشّعب الفلسطينيّ وعائديته للفلسطينيّ وحده، وهذا ما يعرف بالوطن الأمّ الذي يريد المحتلّ الغاشم أن يمزقه بجدار فصل عنصري بعد أن عجز عن هزيمة أصحاب

^٣ باشلار، جاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، ١٩٨٠، منشورات وزارة الثقافة العراقيّة، ص ٣٧

الأرض. يدلّ هذا الجدار العازل على عقلية ونفسية مريضة خائفة مهددة من داخلها لعرفتها بوهم احتلالها لأرض ليست أرضها وتاريخ ليست تاريخها . أمسكت القاصّة رأس الخيط "جدار الفصل العنصري" لتسلط الضوء على قضية العصر، وتضيء القضية الفلسطينية الفلسطينية بالمحكي السردى من ثيمة المكان، ويقع جدار الفصل كرمز للعنصرية في بؤرة القصص كمفارق تضادي لإنتاج دلالة على مستوى المعنى من خلال المحور السايكولوجي والمحور الدلالي للمكان وصولاً للحاسة الانفعاليّة الصّورة بواسطة اللّغة والصّورة لتشكل سيرورة الفكرة ورصد حركة وتجارب شخصها الإنسانيّة على جانبي الجدار الذي بناه المرتزقة.

ويأخذ المكان سياقاً سردياً مختلفاً بواسطة دلالاته الفكرية متجاوزاً الأبعاد الشكلية الفيزيائية خدمة لمقاصد مضمونية وفكرية من خلال الحدث والمصائر والانتقال بكلّ الأماكن لترسم يوميات الحياة الفلسطينية الواقعية، فكان الفلسطيني يقهر الجدار، ويثبت وهمه أمام إرادته وإصراره على الصّمود والبقاء، وبات جدار ليس ذي معنى سوى رمز استلابي للطبيعة قبيح ومشين ورمز لقهر الإنسان دون وجه حقّ، لم تترك للفلسطيني سوى خيار المقاومة مدركا أنّها إرادة مقدّسة من أجل الحياة والوطن.

"في بعض الأحيان نعتقد أنّنا نعرف أنفسنا من خلال الزّمن، في حين أنّ كلّ ما نعرفه هو تتابع تثبيات أماكن استمرار الكائن الإنسانيّ الذي يرفض الدّوبان"، وهذه القصص تدوّن ثبات الفلسطيني على الأرض عبر الزّمن الذي يحويه المكان كدلالات اجتماعية، تاريخية، نفسية، ذاتية. ضمن زمن العمل السردى "زمن المتن الحكائيّ وزمن الحكيم" خدمة للوجود الزمكاني ولغايات فنية وجمالية بلغة تصويرية مرنة مثل "المرونة المتبادلة بين الإنسان والمكان

^٤ المصدر السابق، ص ٤٦

هذه المرونة الغريبة، المتناسقة، المباشرة، والتي تكاد تجعل الإثنين من مادة واحدة^٥

ومن خلال المكان توطن الأزمنة صوب الحلم والذاكرة بتقنية الاسترجاع كمقصد حكائي وتخلق مكان وزمان سرديين بتركيب موازي دون إغفال للتفاصيل وتضمينها ضمن المدلول المكاني للجدار كإشارة إيحائية ورمزية للعنصرية، ونجحت في تعطيل السرد بوصف خوف وفزع المستوطنين من جدار بنوه بأنفسهم فبات يهددهم كل الوقت بدل أن يحميهم؛ لأنه جدار كراهية، والكراهية دلالة الهدم والعزلة والانطواء، وبذات الوقت شطر العوائل والمقابر والمزارع والمقدسات الفلسطينية أصحاب الأرض والامتداد الاجتماعي والإنساني على الأرض، فكانت هذه أماكن مكملة في بنية المشهد السردية الثابتة والمتغيرة بحركة الحدث القصصي باتجاهين متعاكسين كونتها من دلالات تضادية.

وقد نجحت القاصّة من خلال تدوير زوايا المكان والزمان المتمثل في الأجيال الفلسطينية المتعاقبة التي لازالت تعيش بنفس الثبات رغم هذا الجدار الذي شطر أرض الوطن الفلسطيني. وكما يقول باشلار "لا وجود خارج المكان". والمكان الوطن ليس بقعة جغرافية نعيش عليها، بل هي غريزة إنسانية محفورة عميقاً في ذواتنا وذاكرتنا وهويتنا. أصبح المكان الوطن هو الركن الركين ونقطة التركيز في الصراع الذي يحمل ديناميات ودلالات متعددة واقعياً وسردياً في قصص هذه المجموعة.

"حدث ذات جدار" قصص بحاجة إلى قراءة متوغلة في متون النص الحكائي وكشفاً واعياً للدلالات والإمساك بها للوصول لدهشة القراءة وتحقيق مسافة جمالية تنتج عنها لذة القراءة، كل ذلك من خلال المكان

^٥ المصدر السابق، ص ٤٦

والغوص في قيعانه ومعانيه داخل كل قصّة من القصص القصيرة الثلاثة عشر.

استطاعت القاصّة أن تتغلّب على الواقع المكاني المليء بالصراع الدّموي والاستلاب والقهر ومصادرة الحقوق أن تشكل من خلال السرد عالماً أكثر اتساعاً يتلاءم مع إنسانيّة الفلسطينيّ وأحلامه وهويته المتجذرة، فأصبح الجدار نتوء ليس ذي معنى ضد فطرة الطبيعة والإنسان، فمن خلال الحوار الذي ينبئنا أنّ الإنسان ابن الوجود والكون المطلق كلّ هذا جاء من المحايثات الجماليّة للمكان وامتداده في ذاكرة ومخيلة الجدات والإباء. كان صداها واضحاً وجلياً بالاقتراب والابتعاد من الجدار لتعدد المعاني من خلال تعدد الدلالات المكانية وكما يقول الفيلسوف السّيميائي "دانيال تشاندلر: "إنّ الإنسان إنسان المعنى".

أعادني قصص الأدبيّة سناء الشعلان إلى رسّام الكاريكاتير "ناجي العلي" الذي كتب التّاريخ الفلسطينيّ من خلال رسومه الكاريكاتيرية بكلّ أماكن تواجده، وأيقونته الرمزية "حنظلة" أصبحت رمزاً للنّضال الفلسطينيّ وبوصلته تشير باتجاه القدس. اليوم تفتح سناء الشعلان الوجد والصّمود الفلسطينيّ، وتدوّنه سردياً، وفضحت عنصريّة العالم إزاء سكوته عن "جدار الفصل العنصري" معريّة انهزام وكذب النظام العربي الرسمي الذي ترك فلسطين والفلسطيني يخوض غمار شقاه وصموده وحيداً.

قدّمت الأدبيّة سناء الشعلان مجموعتها القصصيّة الجديدة "حدث ذات جدار" بأسلوب وصوت مختلف عن القصيّة الفلسطينيّة، واستطاعت أن تجعل من عتبة العنوان دالّة فاعلة متعددة المعاني في جميع القصص حاضرة بذاتها مباشرة من خلال الأحاسيس، أو من خلال مرآة الإدراك عبر الصّور المختلفة في

^١ العلي، ناجي سليم: "١٩٣٧-١٩٧٨" رسام كاريكاتير فلسطيني مشهور جداً يتميز بالنقد اللاذع والصراحة العالية، أعتيل في لندن عام ١٩٧٨.

المبنى والاستخدام والانزياح الدلالي، وضمنت الدياتكتيك للتوضيح وإيصال رسائل تؤكد ارتباطها الإنساني والوجداني لأرض الآباء والأجداد فـ.....طين.

المراجع:

١. الشعلان، د. سناء: حدث ذات جدار مجموعة قصصية، ط١، دار أمواج للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ٢٠١٥.
٢. باشلار، جاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، ١٩٨٠، منشورات وزارة الثقافة العراقية.

